مفهوم الدراسات الثقافية عند مدرسة بيرمنجهام

The Concept of Cultural Studies in the Birmingham School

روبدي عدلان
جامعة جيجل -الجزائر
rouidiadlene@yahoo.fr

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-02-04	2018-11-10	2019-06-01

ملخص:

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على جهود مدرسة بيرمنجهام في تطوير الدراسات الثقافية المعاصرة والنقد الثقافي، وذلك بالوقوف على المرجعيات الفلسفية والتاريخية والسياسية لهذه المدرسة، والوقوف على مفهوم الدراسات الثقافية والثقافة والنقد الثقافي.

الكلمات المفتاحية: النقد-مدرسة بيرمنجهام، الثقافة، الدراسات الثقافية، النقد الثقافي.

Abstract :

This Article attempts to shed highlight on the efforts of the birmingham school inthedevelopementof cultural studies in culturalcriticism by standing on the philosophical ,historical,and political references of this school ,and on the concept of cultural studies and culturand culturalcriticism

Key words : criticism-birminghamschool-cultur-cultural studies-cultural criticism.

تمهيد:

شغلت الدراسات الثقافية منذ ظهورها إلى غاية اليوم اهتمامات الباحثين والدارسين في كل أنحاء العالم، حيث شكّلت حراكا نقديا وفكريا بين والنقاد والفلاسفة وعلماء الاجتماع، بحكم ما خلفته من آراء ومفاهيم، وإن بقي مفهوم هذه الدراسات غامضا عند الكثير من الدارسين، بحكم مجال اختصاصها ومنهجها وآليات عملها، والمرامي والأهداف التي تودّ الوصول إليها، إلاّ أن توغلها في شتى حقول المعرفة، وخصوصا العلوم الاجتماعية والانسانية كان شديد السرعة والفعالية، واستطاعت أن تقتحم الوسط النقدي والنظرية الأدبية بسرعة فائقة، وتستحوذ على اهتمامات النقاد، خصوصا وأنّ هذه الدراسات تمثل ثورة على النظرية الأدبية التقليدية، وتأسس لطرح ما بعد حداثي في التعامل مع الثقافات والخطابات الفنية والأدبية، لذلك تركت مفعولها بارزا على مستوى الساحة الاجتماعية والأدبية والنقدية، من خلال ما خلّفته من طروحات وأفكار تخصّ معالجة الظواهر الأدبية والإنسانية والاجتماعية، فكان لها مفعول كبير على مستوى الساحة النقدية العالمية، حيث أسهمت في بروز العديد من الخطابات الهامشية المضادة لخطاب المركز، ومن بين هذه الخطابات النقدية، النقد الثقافي وخطاب ما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي والتاريخانية الجديدة والمادية الثقافية، التي تعد من إفرازات النظرية النقدية المعاصرة.

وتعدّ مدرسة بيرمنجهام الإنجليزية من ضمن أهم المدارس النقدية والمعرفية، التي كان لها تأثير فاعل في الساحة النقدية العالمية. فكانت من مؤسسي هذا النوع من الدراسات، حيث أسست لمشروع علمي ومعرفي ونقدي متميز على الرغم من الانتقادات التي تعرضت لها، بل وزادتها قوة ومناعة ومحل إشادة من قبل كبار النقاد والمفكرين، وهذا المشروع العلمي الذي أفصح فيه أصحابه في كتبهم المختلفة، استطاع أن يقدم رؤية معرفية جديدة في قراءة الخطابات الثقافية، على ضوء مجموعة من الآليات والاستراتيجيات، التي تسهّل على الباحث، فهم الظواهر الثقافية والسياسية والاجتماعية والإنسانية، وتقديم رؤية جديدة تعمل على استشراف الأوضاع المستقبلية، التي يعرفها المشهد السياسي والثقافي العالميين، وقد فتحت الدراسات الثقافية مشروعها هذا على أكثر من صعيد، من أجل الكشف عما تخلفه مختلف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في صنع الخطابات المختلفة، التي لا يمكن أن تكون بريئة بأي حال من الأحوال، وقد حمل هذا المشروع بين دفتيه مختلف المثقفين والأساتذة، الذين ينتمون إلى اتجاهات يسارية خصوصا،والكل يشهد لهذه المدرسة بالتأسيس لهذا النمط من الدراسة، الذي يعتمد على عدّة مفاهيمية تستند إلى منجزات الأنثروبولوجيا الثقافية ونظريات علم

الاجتماع وعلم النفس والعلوم السياسية والفلسفة، لذلك تحاول التغلغل في عمق الثقافات الإنسانية وتشريحها، انطلاقا من دراساتها التي تتعلق بالثقافات الشعبية والنخبوية.

وهذا المقال يروم إلى بيان نشأة الدراسات الثقافية ومفهومها من منظور مدرسة برمنجهام، وحضورها في حقل النقد الثقافي، أيكيف نشأت الدراسات الثقافية؟ وكيف فهمها أعلام مدرسة بيرمنجهام؟ وكيف فهموا مصطلح الثقافة؟ وكيف تمّ ظهور النقد الثقافي؟ وسوف نحاول الإجابة على هذه الإشكالية المعقدة، والتفصيل جيدا في هذا الموضوع فيما تبقى من هذا المقال.

1-مدرسة بيرمنجهام النشأة والتطور:

تشكّلت مدرسة بيرمنجهام إثر جملة من التحولات والتغيرات التي شهدها المشهد السياسي العالمي بالإضافة إلى ترسبات وتراكمات فلسفية ومعرفية عرفها القرن العشرين، خصوصا مع انتشار مفاهيم ما بعد الحداثة، التي أسست لها فلسفة الاختلاف وطروحات مفكرين كبار شكّلت أفكارهم طفرة نوعية في الفكر العالمي، ومنظومة العلوم الإنسانية والاجتماعية والأدبية والنقدية وأمام هذا الفتح المعرفي الجديد، ومن رحم هذه التحولات العميقة، التي عرفها المجتمع الأوروبي والعالمي ولدت الدراسات الثقافية التي فتحت أفقا معرفيا جديدا في مقاربة مختلف الظواهر الحضارية والإنسانية، التي يعدّ الأدب واحد منها، لذلك انفتحت دراسات أعلامها على كل السياقات التاريخية والاجتماعية والنفسية وأقامت جسور معرفية مع عدّة علوم ومعارف، وهذا من أجل تشكيل صرح معرفي خاص يشتغل على ما هو عالمي وانساني عام يخص الثقافة، مهما كان مصدر إنتاجها، سواء ما تعلق بالثقافة الرسمية أو الشعبية، ثقافة النخب أم ثقافة العامة، محاولة قراءة المستقبل وما ينتظر المجتمعات الإنسانية، والنظم السياسية والاجتماعية من تحدّيات، في خضمّ المعطيات التي يشهدها المجتمع الدولي من صراعات ومآزق حضارية، وصلت بالإنسان إلى طريق مسدود لذلك ينبغي إقامة مشروع على المدى البعيد يحفظ بقاء الثقافات المركزية، ليكرّس الهيمنة والسيطرة اللتان يضمنان قوّة الحضارة والثقافة الغربيتين، وهكذا تشكلت الدراسات الثقافية ضمن معطيات تاريخية واجتماعية وسياسية وفكرية خاصة، هيأت لمجموعة من النخب المثقفة التي تشتغل في الأوساط الأكاديمية في الجامعات الانجليزية بأن تشكّل معهدا خاصا بهذا المجال المعرفي، حيث «شرع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة بيرمنجهام *Brimingham* في عام 1971 في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية *workingpapers in cultural studies*، والتي تناولت وسائل الاعلام*Media* والثقافة الشعبية *popular culture*، والثقافات الدنيا *sub culture*، والمسائل الأيديولوجية *ideologicalmatters*

والأدب *literature* وعلم العلامات *semiotics*، والمسائل المرتبطة بالجنوسة *genderRelated issues*، والحركات الاجتماعية *social Movements* والحياة اليومية *evereyday life*، وموضوعات أخرى متنوعة»[1]، وشكّل فتح هذا المعهد حدثا كبيرا في الأوساط العلمية والأكاديمية في إنجلترا، خصوصا في مجال الدراسات السوسيولوجية حيث «عني بدراسة الأشكال والممارسات والمؤسسات الثقافية وعلاقاتها بالمجتمع والتحولات الاجتماعية»[2]،ومن رواد هذه المدرسة ريموند وليامز *Raymond willims* و تيري إيغلتون *Terry Eaglton* وإستهوب *Easthep* وريتشارد هوقار *Richard Hoggart* وديك هابديج *Dick Hebdige* ودافيد مورلي *David morley* وروبرت شولز وإدوارد طمبسون *Edward Thompson* وستيوارت هول *Stuart hall* وبان أنج *Ien Ang*، وفي بدايتها كانت الدراسات الثقافية متأثرة باليسارية الجديدة في إنجلترا، التي رفضت الماركسية الرسمية التي كانت تفهم أنها تمثل الجبرية الصارمة لكل من الاقتصاد والتاريخ، وقد تصاعدت هذه النزعة النقدية الماركسية بعد الغزو الروسي للمجر عام 1956 بشكل خاص، وقد بدأت الدراسات الثقافية في البداية في بريطانيا، لتمتد بعدها إلى دول ومجتمعات أخرى، فمن فرنسا إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلى كندا وأستراليا، لتمتد إلى جنوب شرق آسيا خصوصا الهند[3]، وهذا بفعل معطيات تاريخية وسياسية، على اعتبار أن الهند كانت مستعمرة بريطانية وحتى اللغة الإنجليزية فرضت لنفسها وجودا معتبرا في تلك الرقعة الجغرافية، وبعدها امتد نفوذ الدراسات الثقافية إلى شتى بقاع العالم، لتخرج من نطاقها الجغرافي فيما بعد، وتشمل مجالات عديد خاصة ما تعلق بالتحليل السياسي، «لقد شهدت سبعينيات القرن العشرين، الربط المباشر بين الثقافي والسياسي، أو على الأرجح، وضع الثقافي في خدمة السياسي، تحقيقا لمصالح السياسي »[4]، وهذه الفكرة لقيت رواجا كبيرا في أمريكا من قبل المشتغلين في حقل النقد الأدبي والثقافي.

فقد تغلغلت الدراسات الثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية، ليتلقفها مجموعة من النقاد أمثال بول ديمان *Diman paul* وهيليس ميلر *Hilismiller* ودلثاي *Dilthey* وهارولد بلوم *Harold Bluom* كمنهج في قراءة الخطابات الأدبية والفنية، من خلال تفكيك الخطابات الثقافية، واكتشاف ما تخفيه من أشكال الهيمنة والسيطرة والإيديولوجيات وهذا يدخل ضمن استراتيجية المجتمع الرأسمالي ككل، الذي فرض تحوّلا ضمن السيرورة النقدية والمعرفية، لذلك «سعى جيمسون إلى الكشف عن اللاوعي السياسي المتضمن في النصوص الثقافية والنقدية، وبيان إمكانية تعرية تلك النصوص من

أقنعتها الأيديولوجية وشعاراتها التي قد لا تملك صيرورة تمثل الحقيقة»[5]، فلا يمكن فصل سياق ظهور هذه الخطابات عن سياقها السياسي العام، الذي ارتبط بالمنظومة الرأسمالية نفسها.

وفي عام 1968 عرفت فرنسا بصفة خاصة، وأوروبا بصفة عامة مجموعة من الاضطرابات، بخروج الطلبة والمثقفين في مظاهرات عارمة ضدّ البنيوية، وهذا ما أدّى إلى ظهور تيارات جديدة شكّلت مرحلة ما بعد البنيوية، وذلك بظهور نظريات القراءة والتلقي والتفكيك، هذه المعطيات الجديدة شكّلت وعيا جديدا لدى جماعة برمنجهام، الذين انصرفوا نحو الماركسية، فظهر كتّاب تيري إيجلتون "النقد والإيديولوجيا" «وهو كتّاب يتبنى أفكار التيار المضاد للنزعة الهيجلية (عند ألتوسيروماشري)، ويطرح نقدا عميقا لتراث النقد الإنجليزي وفي نفس الوقت تقييما جذريا جديدا لتطور الرواية الانجليزية»[6]. وقد أفضى هذا التحوّل في المسار الفكري لهذه المدرسة، إلى تطوّر النظرة إلى مختلف الظواهر الإنسانية والفنية والأدبية، وكيفية التعامل معها ودراستها وتحليلها، وهذا ما أنتج نوعا من النقد، الذي يتعدّى حدود الأدب ليدخل حقل الثقافة بشتى أنواعها.

2-المرجعيات الفلسفية والمعرفية لمدرسة بيرمنجهام:

لاشك أنّ أي مدرسة نقدية أو فكرية أو أدبية لا تنهض من فراغ، وإنما يسهم في تشكلها تراكمات وترسبات معرفية وفلسفية تمكّنها من بناء صرحها المعرفي، وتشكيل مناعتها الإيديولوجية التي تضمن لها البقاء أكبر مدّة ممكنة في الساحة المعرفية العالمية ومواجهة العواصف والهزات الفكرية والتاريخية والاجتماعية والسياسية التي تعرفها المراحل التاريخية المتعاقبة، وهذا يتّضح خصوصا لما تمتلك شرعية علمية ومعرفية ضمن حقول المعرفة الأخرى، وهذا ينطبق على حقل الدراسات الثقافية عموما ومدرسة بيرمنجهام على وجه الخصوص، التي استفادت من الفتوحات العلمية التي شهدها هذا القرنو التي امتدت نحو مجالات عديدة، من العلوم التجريبية والبيولوجية، نحو العلوم الإنسانية والاجتماعية كالتاريخ وعلم الاجتماع، وعلم النفس والفلسفة، كل هذه المعطيات شكّلت مرجعية مهمة للدراسات الثقافية، حتى تستقيم على أقدامها وتمتلك شرعية معرفية، خصوصا لدى مدرسة بيرمنجهام، التي استفادت من فلسفات عديدة، ومن الفلسفة الماركسية بصيغتها التقليدية على وجه الخصوص، هذه الفلسفة التي تؤمن بأنّ أيّ مجتمع مقسم إلى بنيتين رئيسيتين، بنية سفلى تمثل وسائل الإنتاج المادي، وبنية عليا تمثل الأفكار والتصورات، وصيغ الوعي، والعلاقة جدلية بينهما[7]فهما يرتبطان ضمن حلقة سببية في منظومة التفكير والفهم، «إنّ الوعي -كما يؤكد الماركسيون- قد يكون نتاج المجتمع، ولكنه ينقى دائما- من خلال عقول الرجال والنساء الفاعلين في العالم، ولديهم الشخصية والخبرات التي

تشكل- ولا شك- مفاهيمهم»[8]. إضافة إلى هذه المرجعية الفلسفية، استفادت الدراسات الثقافية من الماركسية بنماذجها الجديدة، التي أعادت صياغة المقولات التقليدية، وتكييفها مع المعطيات العلمية والاقتصادية والتاريخية والسياسية المعاصرة، ويتجلى هذا من خلال جهود لويس ألتوسير *Louis Althusser*، وبيار بورديو *pierre Bourdieu* في المادية الثقافية، والممارسات الثقافية وعلاقتها بالتمايزات الاجتماعية وطبيعة ممارساتها، التي «راحت تؤكد التفاعل بين ألوان الابداع الثقافي كالأدب وسياقها التاريخي متضمنا العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية»[9]، إلى جانب التأثير الكبير الذي خلّفته فلسفة ميشال فوكو*michelfoucault*، الذي يمثل «نقطة إبداعية قصوى ضمن منظومة الإبداع البنيوية وفي الوقت ذاته يمثل نقطة تحوّل أساسية في طبيعة البنيوية كما بلورها الرواد الأوائل في مجال اللسانيات والأنثروبولوجيا»[10]، فمن خلال مشروعه الأركيولوجي في تعرية بنية الفكر الغربي، تمكّن من تحقيق طفرة منهجية في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية، خصوصا في تفكيك بعض الظواهر والمفاهيم المعقدة كمفهوم السلطة، فقد « أظهر كيف أنّ السلطة منبثقة في جميع أشكال العلاقات الإنسانية حين ساءل التحيزات المختلفة التي تنطوي عليها ممارسة السلطة حتى في السلوكات والمواقف التي قد تبدو في الظاهر ممارسة نبيلة»[11]، وقد سخّر مشروعه الفلسفي الكبير في اكتشاف هذه العلاقات المعقدة ومختلف الآليات التي تمارس بها السلطة لفرض هيمنتها وسيطرتها، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى مجموعة من كتبه المهمة وهي: "الكلمات والأشياء" و "نظام الخطاب" و"المعرفة والسلطة" و "حفريات المعرفة" و"تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" و"مولد العيادة" و"المراقبة والعقاب".

وليست هذه الفلسفات هي الوحيدة التي شكلت مشروع الدراسات الثقافية لدى مدرسة بيرمنجهام، بل هناك ترسبات فلسفية ومعرفية أخرى، كمدرسة فرانكفورت في ألمانيا، ونظريتها النقدية التي اشتغلت على تفكيك العقل الغربي وفق مقاربة جديدة، «بالتركيز على تشريح الأنظمة الاجتماعية، وتحديد العناصر المكونة للتوجه الاجتماعي، وتحديد العلاقة بين الاجتماعي والاقتصادي والأيديولوجي»[12]. وهذا المشروع الفلسفي الكبير، والجهد النقدي العميق الذي عكفت عليه هذه المدرسة، فرض عليها أدوات إبستمولوجية، وذلك «باستخدامها لأدوات منهجية، تحليلية، نقدية تحرّر الفرد من أغلال الإيديولوجيا والمؤسسات وكل ما يدعو إلى التخندق حول ما هو جاهز»[13]،فتركت بصماتها بارزة في عقول أعلام مدرسة برمنجهام، خصوصا تيري إيغلتون *Terry Eagalton*، الذي تأثر بأفكار أودورنو *th.Adorno*، حول نقد الثقافة الجماهيرية، وتسليع الثقافة وطرق ترويجها، ودور المؤسسات في ذلك، حيث «حولّت المؤسساتية الجامدة الثقافة الجماهيرية الحديثة إلى وسيط لخيالات

تجاوز حدود ضبط النفس وتوازنها»[14]، وهذه الأفكار لقيت تفاعلا كبيرا من قبل النقاد والدارسين، في الساحة النقدية والأدبية المعاصرة، وهي تتقارب مع أفكار زميله ووالتر بنيامين *W. Benjamin* ، الذي ترك هو الآخر مفعوله لدى جماعة بيرمنجهام، من دون أن نتجاهل إنجازات الأنثروبولوجيا الثقافية والدراسات الاجتماعية المعاصرة.

كل هذه المشاريع الفلسفية والمعرفية، شكّلت الحجر الأساس لهذه المدرسة الأكاديمية، التي عكفت على دراسة العنصر الثقافي حيث أرست قواعدها وحددت منهجها، وسطّرت أهدافها المستقبلية.

3-مفهوم الثقافة لدى جماعة مدرسة بيرمنجهام:

لا يمكن الحديث عن مدرسة بيرمنجهام دون تجاوز إشكالية المصطلح، ومجال اشتغال هذا المجال الدراسي من منظور أعلامها، خصوصا ما يتعلق بمصطلح الثقافة ومفهومه، ثم معرفة الحدود التي تحكم هذا الحقل المعرفي، فهذا المفهوم من المفاهيم المتشعبة والمنفلتة التي يصعب القبض على معانيها، «فالثقافة تعرف في قاموس علم الاجتماع والمصطلحات المرتبطة به إنها اسم جماعي لجميع النماذج السلوكية المكتسبة اجتماعيا والتي يمكن نقلها عن طريق الرموز»[15]، كما يمنحها تايلور تعريفا شاملا، صار أكثر تداولا ضمن الحقل الثقافي، حيث يقول: «الثقافة مكلّ مركّب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع»[16]، هذا التعريف على الرغم من استفاءه لعناصر عديدة تتعلق بالثقافة، كمكوّن سلوكي للفرد، إلاّ أنه حسب الباحث والناقد ريموند ويليامز *Raymond williams* يبقى قاصرا، وغير مستوف لشروط الثقافة بصفة عامة، لذلك اشتغل كثيرا على مفهوم الثقافة، الذي يعتبره من أخطر المفاهيم فكان تركيزه منصبا حول هذا المفهوم«فإذا كانت كلمة ثقافة تعني في الأصل العناية بالزراعة وتربية الحيوانات الداجنة فإنّ هذا يوحي بمعنيين التنظيم والنمو التلقائي»[17]. وهذا المعنى يبقي الثقافة في حقل محدد بعينه وهو حقل الزراعة، وحسب ويليامز فإنّنا بالعودة إلى أصول الكلمة في المعاجم الغربية واللغات الأوروبية القديمة نجد، أنّ «الجذر الاتيني لكلمة ثقافة *culture* هو *colere* يفلح والذي يمكن أن يعني أي شيء ابتداء من حراثة وزراعة الأرض إلى السكنى والعبادة والحماية وتطور معناها من "يسكن" أو يستوطن، وهو باللاتينية *colonus* إلى الكلمة المعاصرة استعمار *colonialism* والتي يمكن ترجمتها إلى استعمار استيطاني، ولهذا فإنّ عناوين مثل الثقافة والاستعمار *culture and colonialism* هي للمرة الثانية ضرب من الحشو ولكن كلمة اللاتينية ينتهي بها المطاف لتصبح شأن المصطلح الديني وتعني عبادة أو دين أو عقيدة تماما مثل فكرة الثقافة نفسها في عصرنا الحديث»[18]،

ومن خلال الحفر في جذور هذه الكلمة تبرز مخاطر هذا المصطلح وأبعاده المختلفة، التي تفتحها على مستويات عديدة سياسية ودينية وعقائدية، ولمّا يرتبط هذا المصطلح بالاستعمار والهيمنة، فإنّ المسألة تكون أكثر تعقيدا وغموضا حسب ويليامز ومنه ف«الثقافة تلخص تجربة المجتمع ووعيه بذاته ومحيطه فهي تشكل نافذة يطّل منها الباحث على كل نواحي الحياة العلمية والسياسية والروحية للمجتمع بما هي تسجيل أو سجل للقيم الأساسية التي تحكم الممارسة العلمية والسياسية والإنتاجية، وتشكل إذن بامتياز لحمة الجماعة الاساسية»[19].حيث تلمّ شمل الأفراد وتشدّ أزرهم، لتشكل جملة من الأنساق التي تسبح بها في فضاء أو« مجال رمزي مشبع بالمعاني والأفكار والعقائد وأنماط العلاقات الاجتماعية والتطلعات وكل المؤثرات الفاعلة التي تصوغ الهوية العامة لمجتمع من المجتمعات»[20]، فتضمن ديمومته ونشاطه، وحرا كه الحضاري.

وقد انشطر مصطلح الثقافة من حيث البنية الاشتقاقية إلى «ثلاثة مصطلحات تنتظم الثقافة الاجتماعية، إنّ في حالة الثبات أو حالة الحركة هي: التحيّز الثقافي، والعلاقات الاجتماعية، ونمط الحياة»[21]، ويتضح ممّا سبق أنّ مصطلح الثقافة كان بعيدا عن حقل الأدب والنقد، ولم يشتغل عليه سوى علماء الاجتماع والانثروبولوجيا، لذلك «دخلت كلمة الثقافة النقد باعتبارها أنساق قيم السلوك والمعاني التي تشكل الكائنات الإنسانية وتحيا داخلها»[22]، لذلك عملو يليامز *williams* على أن يكون ما هو ثقافي وما هو سياسي جنب إلى جنب، وهنا تقتفي الدراسات الثقافية والنقدية والأنثروبولوجيا الثقافية أثر نظريات ما بعد الحداثة وذلك من أجل إعادة النظر في فهم جملة من المسلمات والمفاهيم وزعزعة الكثير منها، وإعادة قراءتها بمنظور جديد، وأفق معرفي آخر، خصوصا في فترة نهاية الستينيات وبداية السبعينيات في أوروبا، التي عرفت تطورا ملحوظا على مستوى الوعي، خاصة لدى أعلام مدرسة برمنجهام حيث أحدثت تلك الفترة «تغيرا جذريا فيما كتبه تيري إيغلتون منذ نهاية السبعينات، فقد انصرف عن الاتجاه العلمي لألتوسير *Althsser* إلى الفكر الثوري عند بريخت وبنيامين، ممّا أدى به إلى العودة إلى النظرية الماركسية القديمة في كتاب "أطروحات عن فويلاباخ"»[23]، وهنا يبرز دور الدراسات الثقافية في سعيها إلى إعادة النظر في مسألة الثقافة وممارساتها المختلفة، وفق أسس جديدة ومعطيات مختلفة عمّا كانت عليه في السابق.

والأكيد أنّإيغلتون *Eaglton* استفاد كثيرا من الدراسات الانثروبولوجية والنفسية، كما استفاد النقاد الذين جاءوا من بعده من مقولات ميشال فوكو *michalfaucoult*، وبيار بورديو*pierre Bourdieu*، من أجل تشكيل فهوم جديدة للمسألة الثقافية في ضوء المعطيات السياسية والاجتماعية، وللثقافة نفسها

ضمن هذا المحيط الجيوسياسي، وهذا من صميم البحث الثقافي، فالثقافة حسب ويليامز، مفيدة لتحليل البنى الاجتماعية والثقافية لذلك ينبغي الربط بين الثقافات والنصوص وسياقاتها السياسية والاجتماعية، فتكون هنالك المهمة الجمالية جنبا إلى جنب مع المهمة التاريخية والسياسية. وبهذا الشكل يعود النقد ليكشف عن منهج شمولي، يشتغل على مقولات التفكيك والأنثروبولوجيا الثقافية لذلك تحوّل نشاط النقد لدى مدرسة برمنجهام، إلى خطاب نقدي يعكس القيم الإيديولوجية والسياسية السائدة من ناحية وهكذا يصبح النص عبارة عن علامة ثقافية (بتعبير الغذامي) هي جزء من سياق ثقافي وسياسي أنتجها، وما يريد هؤلاء النقاد هو الكشف عن الانظمة الداخلية لهذه العلامة(الثقافية) في إطار مناهج التحليل المعرفية، وتأويل النصوص وخلفياتها التاريخية والتحليل المؤسساتي، لذلك فهم يضعون النص داخل سياقه السياسي والتاريخي.

4-مفهوم الدراسات الثقافية وإشكالية التسمية/ انصهار الأدبي في الثقافي:

مصطلح الدراسات الثقافية من المصطلحات التي يشوبها الغموض والتعقيد، فهو زئبقي المفهوم مراوغ ومخادع ومضلل في دلالته، لذلك يصعب على أي دارس أو ناقد فهمه، سواء من حيث منهجه أو من حيث مراميه وأهدافه المعلنة والخفية، حتى عند نقاد جماعة برمنجهام، وهو من إفرازات ما بعد الحداثة، وإن كان له جذور تعود إلى عصور سابقة تصل إلى القرن 19م، فالدراسات الثقافية «تتآلف مع ما بعد الحداثة أو تحمل سمات ما بعد الحداثة»[24]، فهي ولدت في حضن فلسفتها التي انطلقت معطياتها «من إفراز المعطى الكوني لوصف ثقافة بعينها، وقد عدّ(بورديو) ذلك احتكارا كونيا، وخلاصة عمل يخو للكونية (*Universalisation*) ويتحقق في داخل الحقل البيروقراطي ويفرض اللغة والثقافة السائدتين بوصفهما شرعيتين، واستبعاد خصوصيات الثقافات الأخرى، وهنا تتم السيطرة الرمزية للمعطى الكوني القائمة على الاعتراف بمبادئ نقدية وثقافية تتم من خلال ممارسة فعل التسلط»[25]، لذلك خلّفت لنا عاصفة ما بعد الحداثة خطابات جديدة تمارس عنفا رمزيا في حق الثقافات، لتحاول إخضاعها بشكل أو بآخر والإيقاع بها في سجن الثقافة الكونية، التي هي من إنتاج المركزية الغربية، التي فرضت شبكة من العلاقات التي تحكم منظومة الثقافة، وأكسبتها شرعية دولية لتبرير استراتيجية الهيمنة والسيطرة، وهذا المآل لا مفرّ من شراكه لذلك فمغامرة وضع مفهوم جامع ودقيق وموحّد للدراسات الثقافية، تبقى محفوفة بالعديد من المخاطر الإبستمولوجية والمزالق المنهجية التي يمكن أن تنزاح بالباحث عن جادّة الصواب، ف«ليس من السهل وضع تعريف دقيق للدراسات الثقافية(*culturalstudies*) لأن مفهوم الثقافة نفسه يتميز بكثير من التعقيد والغموض كما يرى الناقد

الثقافي رايموندويليامز*Raymond williams* »[26]، من هذا المنطلق نقرّ بأنّ الدراسات الثقافية يصعب تصنيفها ضمن شكل من أشكال المعرفة وحقولها المتشعبة، « فالدراسات الثقافية ليست نظرية بما يعنيه مفهوم النظرية من تجانس في المفاهيم، وانتمائها انطولوجيا إلى حقل معين في المعرفة وإنما هي مزيج من النظريات والمقاربات والنماذج والأسئلة، التي توظف لقراءة الممارسات الخطابية وأنماط القوى الاجتماعية والثقافية وارتباطها بالهويات والجماعات»[27]، حيث خلقت لنفسها وجودا ضمن المنظومة العلمية لدراسة العنصر الثقافي، ومفعوله السياسي والإيديولوجي، وهذا بفضل مجموعة من الممارسات النقدية الرائدة التي استثمرت استراتيجياتها، للكشف عن الإيديولوجيا المضمرة ضمن حقل الثقافة فكان همّها الأكبر هو إدراك العلاقة بين المؤسسات السياسية والثقافة، وما يخفيه هذا النوع من المؤسسات من فرضيات خفية وألغام خطيرة تهدّد مستقبل المجتمعات والثقافات الهامشية، كما أنّ « الدراسات الثقافية سواء في نظامها الداخلي أو في قواعدها النظرية تبقى حيوية في محيط الأسئلة العامة، والتي من النادر أن تتوحّد في برنامج واحد يضمّ على نحو جيّد كل اهتماماتها»[28]. ممّا يصعّب من مهمة القبض عن مسارها العلمي والبحثي، ومع ذلك نجد من النقاد والدارسين من يرى بأنّ الدراسات الثقافية سارت في اتجاهين «المنحى الأول تمثل في النزعة الإنسانية المتحررة وكل التراث الإنساني نحو كل ما هو دراسة ثقافية تنزع إلى تكريس فكرة الإنسانية.

المنحى الثاني: الذي نشأ عن البنيوية وما بعد البنيوية»[29]، فهي ليست دراسة علمية أو فلسفة أو جملة من الأطروحات فحسب ولكنها انفتاح على أسئلة عميقة تخصّ الثقافة الإنسانية في إطار شامل وجامع، ضمن محيط سياسي وإيديولوجي كوني، وهي استراتيجية في قراءة مختلف الخطابات سواء إعلامية، أو تخص الثقافة الشعبية أو النخبوية، ومن ثم فالأدب ينصهر مع تلك الخطابات وتجلّى من خلال تصريح تيري إيجلتون*Terry Eagleton* حيث قال:« إنني أعتمد النظريات التي تتعامل الأنواع المتعددة للخطاب وليس النظريات التي تتعامل مع الأدب فحسب بغضّ النظر أن يسمّيها أحدهم ثقافة أم ممارسات دالة أو أي شيء آخر فذلك أمر غير مهمّ »[30]، حيث تقوم على تفكيك تلك الخطابات الثقافية والأدبية والنقدية والاعلامية، وعدم التمييز بين تلك الخطابات ونوعيتها يفضي إلى تراجع الأدبي، ليفسح المجال أمام ما هو إيديولوجي وسياسي وفي هذا الصدد يضيف إيجلتون*Eagalton*« إنّ خطابات كل أعضاء المجتمع وليس أعضاء النخبة المثقفة فقط، يجب أن تأخذ في الحسبان، إنّ هذه إشارة إلى أنّ نموذج الدراسات الأدبية قد مات ومن الصعب الآن أن نجده يعيش كما كان حيّاً سابقا»[31]، وهذا يوضح جيدا توجّه هذا الحقل الدراسي واهتمامه الرئيسي، وذلك من خلال التموضع

في لبّ الخطابات الثقافية وتقويضها من داخلها، فتعمل على خلخلة أبنيتها وهذا يكون عبر استراتيجية محكمة، تتوغّل إلى ما وراء الثقافات الانسانية، وعبر الأشياء التي تحدد انتماءها إلى التاريخ والفضاء الإيديولوجي، ويشاطر إستهوب*A.Easthop*إيغلتون رأيه، حيث اشتغل على دراسة الثقافة الشعبية، فهو يرى« أنّ الأدب قد مات وأنّ نظاما جديدا حلّ مكانه»[32]. وبهذا الشكل لن تكسب الدراسات الأدبية أهميتها في ظل الحاجة الملحة للثقافة الشعبية، التي فرضتها معطيات وظروف عديدة، منها ما هو معرفي يتعلق بالبلاغة القديمة واللسانيات التي رسمت حدودا معينة للدوال اللغوية، وقيّدت مجال نشاطها، لذلك ف« الدراسات الثقافية يجب أن تجهّز نفسها لأن تعدّ كل شكل من أشكال الممارسة الدالة هدفا حيويا للدراسة إذا أرادت أن تعدّ خطابا جادّا للمعرفة»[33]، وبهذا الشكل تفتح أرجاء واسعة من التأويل والقراءة، التي تمنح الخطابات أبعادا دلالية واسعة، وإلى جانب المعطيات اللغوية هناك معطيات سياسية غاية في الأهميّة، لأنها ترتبط بالمسألة الديمقراطية« إذ يجب على الدراسات الثقافية أن تعمل على مبدأ ديمقراطي كما عبّر عنه ويليامز*williams*»[34]، فالممارسة الثقافية تتأسس بوصفها طريقة في النظر والمعاينة تتعلق بالخطابات الثقافية، ولكنها استراتيجية خطيرة في التعامل مع الثقافات الإنسانية، وهي تتوضعفى الطرف الآخر المقابل للمقاربات التاريخية والاجتماعية والنفسية والبنيوية والسيميائية والأسلوبية، وهدفها الأساسي هو قراءة الخطابات الثقافية الإنسانية، ومنه يمكن الخروج بمجموعة من المرجعيات الفكرية والفلسفية، التي شكّلت هذا الخليط المعرفي، ف«الدراسات الثقافية أو النقد الثقافي يعني تنويعة من عدد من التيارات مثل: الماركسية الجديدة والمادية الثقافية والتاريخانية الجديدة وما بعد الكولونيالية»[35]، التي اجتمعت مع بعضها البعض لتشكّل مجالا معرفيا ثريا، يستثمر استراتيجية محكمة تعتمد آلية الكشف، والبحث عن البنى الخفية، أو المطمورة داخل الثقافات، عبر فضاء فكري جديد ومغاير، ومن خلال رؤية استراتيجية تهدف إلى تفكيك بنية تلك الثقافات وأسسها الداخلية، بحثا عن أنظمتها الدلالية وأنساقها المتعالقة وصولا إلى القراءة المنتجة والفعّالة، إنّ هذ التفكيك هو محاولة لإنشاء استراتيجية عامة، وهذه الاستراتيجية من هذه الزاوية ليست حيادية وإنما هي مقصودة، ترمي إلى البحث والتنقيب، عمّا يحكم الثقافة في مرجعياتها المكانية والزمانية وهذا من خلال مساءلة مجموعة من النماذج والأبنية، ومن ثم تقديم قراءة معينة لتلك الثقافات.

ومن هنا تبدو الدراسات الثقافية طريقة خاصة في فهم مختلف الخطابات الإنسانية والاجتماعية وذلك بأن تقيم في أفق مفتوح على مختلف السياقات السياسية، والتاريخية، وجعل الثقافة تحتل الصدارة من اهتماماتهم العلمية والمعرفية بشتى أنواعها والاشتغال داخل هذا الفضاء الرحب

والمتشعّب، وهذه الأفكار التي جاء بها أصحاب هذا المشروع العلمي، لقيت اهتماما كبيرا من قبل نقاد وفلاسفة ومفكرين ليس في إنجلترا فقط، بل في مختلف بقاع العالم، خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية.

5-النقد الثقافي من منظور جماعة بيرمنجهام:

تبلورت المعالم الأولى للدراسات الثقافية لدى مدرسة فرانكفورت في ألمانيا، ومدرسة برمنجهام في إنجلترا، من أجل مساءلة الخطابات الثقافية ذاتها، مع انفتاحها على مختلف العلوم المساعدة وإحضارها إلى المتن الثقافي، وكسر الحدود التصنيفية للثقافات ومن هنا اتجهت الأبحاث عندهم نحو تفكيك الثقافات الشعبية بمختلف أنماطها، إلى جانب ثقافة النخب، حيث أنتجت كمشروع ضمن سياقات سياسية واجتماعية وعقائدية محددة، والخطاب الأدبي لا يمكن دراسته خارج هذه الحلقة، فهو ينصهر ضمن مختلف هذه السياقات، فينفتح على العالم باصطلاح إدوارد سعيد العالم بكل محمولاته التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ،التي صنعت دنيوية النص، وهذا يتطلب مجموعة من الأسلحة الإبستمولوجية والآليات العلمية، التي تعين على فهم النصوص، والوصول إلى مقاصدها العميقة والخفية.

وفي ظل هذه التحوّلات التاريخية والسياسية، ظهر ما يعرف بالنقد الثقافي في البيئة الغربية، الذي يعدّ من إفرازات الدراسات الثقافية نفسها ف«لم يعرف الغرب مصطلح النقد الثقافي إلاّ في فترتي السبعينات والثمانينات من القرن العشرين بعد أن عمّمه الناقد الأمريكي فنسنت ليتش وأبرزه في كتابه "النقد الأدبي الأمريكي-1988" »[36]، حيث قام بعملية التأصيل لهذا الفرع الجديد من الدراسات الثقافية والتنويه إلى مؤسسيه الأوائل من الدارسين، فهو يرى « أنّ الجماعة المدعوّة بمثقفي نيويورك هم الذين قاموا "بربط الأدب بصورة وثيقة مع الثقافة" الشيء الذي مكّنهم من ممارسة أشكال" عديدة من البحث تتراوح من السيرة الفكرية إلى تاريخ الأفكار، ومن دراسة النوع الأدبي ذي القاعدة العريضة إلى التحليل النفسي من دون أن يتخلوا لا عن الشرح النفسي ولا النقد التقويمي ولا التحليل الاجتماعي"»[37]، ومن هنا بدأ هذا النقد يشتدّ عوده ويستوي على أقدامه، ويفرض مكانته ضمن الساحة النقدية المعاصرة، خاصة ضمن مناهج ما بعد البنيوية. حيث استفاد من مختلف الخطابات الفلسفية واستثمر مقولات مختلف المناهج القرائية، كالتفكيك والتأويل والتلقي، ليعيد بناء أفق قرائي جديد في سياق إبستمولوجي مختلف الهدف منه تجاوز القراءات السابقة، التي تعدّ حسبهم نمطية، ولا

تستوفي النص حقّه من القراءة والتأويل، لذلك ينبغي الحفر في أعماقه من أجل الوصول إلى اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه باصطلاح المفكر الجزائري محمد أركون.

ومثلما يصعب ضبط مفهوم قارّ للدراسات الثقافية، ومثلها مفهوم الثقافة من منظور أعلام هذه المدرسة، فإنّ النقد الثقافي بدوره لا يستقيم على تعريف واحد، وإنّما نجد له ركاما من التعريفات المتعددة، التي تشتغل في مجال «إدراك الحراك الديناميكي للمنتج الإنساني الفكري، وعلاقة ذلك بالمعرفة الإنسانية وممارستها الاجتماعية»[38]، فالكشف عن هذه العلاقة يقتضي مجموعة من الآليات العلمية والمنهجية، ف«النقد الثقافي فعالية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأبى المناهج الأدبية عن المساس به أو الخوض فيه»[39]، وهو نقد يقتحم المناطق المظلمة والمهمشة داخل الخطابات، ويحاول تحريك اللحظات التاريخية الراكدة التي قلبت موازين التاريخ والفكر، لتصنع تلك النصوص الاشكالية، وهنا يمكننا الإشارة إلى تعريف عبد القادر الرباعي، الذي يرى أنّ «النقد الثقافي مكوّن معرفي شمولي يرصد حراك الانسان وفاعليته في إبداعاته وإنجازاته بتخطيطات ذكية ودوافع عقلية ومواقف فكرية ونوازع شعورية متنوعة ومعقدة، تصدر عنها وتقاس بها جميع اهتمامات الانسان وعلاقاته وإنجازاته مادية كانت أم معنوية»[40]. وهذا التعريف يبرز جيّدا شمولية هذا النقد وموسوعيته، لأنه لا يكتفي بما هو أدبي في النص، بل يتجاوزه نحو مختلف السياقات التي أنتجته «ولأنّ النقد الثقافي فعالية لا فرعا معرفيا فإنه يتوخى بلوغ المعارف الأخرى عبر استخدام واسع للنظريات والمفاهيم التي تتيح القرب من فعل الثقافة في المجتمعات»[41]، وهذا ما يكسبه شرعية علمية واعترافا أكاديميا ضمن الجامعات والمؤسسات الثقافية، لذلك يتوغل هذا النقد نحو مختلف المجالات، ويزحف نحو أعماق النصوص على اعتبار أنّ «النقد الثقافي يعني التوسع في مجالات الاهتمام والتحليل للأنساق»[42]، تلك الأنساق التي تختفي خلف النسيج اللغوي للنصوص، وتتموّه لتشكل ألغاما دلالية تفتحها على تعددية قرائية، فالناقد الثقافي عليه أن يمتلك عدّة نظرية وجهازا معرفيا شاملا حيث يحيط بالنص من مختلف الجوانب لذلك «لا يمكن أن نتحدث عن (النقد الثقافي) بدون معرفة واسعة بالميادين والمعارف والنظريات الأدبية والإعلامية والثقافية والمقارنة والمدارس والاتجاهات والأفكار وسياقات ظهورها وأنساق نموّها وانكماشها داخل الخطابات»[43]، كلّ هذا الرصيد المعرفي إلى جانب التحكّم الجيد في المناهج وطرق مقاربة النصوص، يتيح للناقد فرصة معاينة النص والغوص في أعماقه وهذا يفرض وعيا ثقافيا ووعيا منهجيا من قبل الناقد أو القارئ، فنحن الآن لسنا أمام نصوص أدبية، وإنما أمام نصوص معرفية، تفتح جسور التواصل مع شتى العلوم والثقافات وهذا يفرض على الباحث طقوسا

جديدة في القراءة، التي« تسعى إلى رصد التفاعل بين مرجعية النص الثقافية، والوعي الفردي للمبدع، فتنطلق من الخلفية الثقافية للنص، مرورا بتأويل مقاصد المبدع ووعيه وانتهاء بدور القارئ»[44]، وهذه المغامرة تستدعي أفقا تاريخيا مختلفا من قبل المتلقي، لأنّ «القراءة الثقافية للنص الأدبي ترتكز بالدرجة الأولى على الوعي الثقافي للقارئ الذي يمكّنه من تحليل الأنظمة الثقافية التي أبدع فيها النص»[45]، ووفق هذا المنظور الشامل، يبدو أنّ الأدب عبارة عن مصطلح غير مستقر وثابت من حيث الوظيفة، ولكنه لا ينفصل عن إطاره التاريخي والفكري. فالنصوص الأدبية لا تولد منقطعة عن بيئتها السياسية والاجتماعية والثقافية، ولا تعيش منفصلة عنها، وإنما تنشأ في وسط ثقافي واجتماعي وسياسي وحضاري، هيأّ لها الظروف الازمة لتكون بذلك الشكل ووفق تلك الرؤية، وهذه المعطيات تفرض وجودها على الناقد، «فالنقد الثقافي هو الذي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجمالية والفنية، فيحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية وينتمي هذا النقد الثقافي إلى ما يسمى نظرية الأدب على سبيل التدقيق»[46]،وحسب إيستهوب فمشروع النقد الثقافي لم يكتمل بعد فهو في نموّ مستمر ودائم في طريقه إلى النضج، ف«الدراسات الثقافية ومثلها النقد الثقافي مازالت تلمس طريقها إلى الشكل النهائي الذي يقربها أكثر فأكثر من النموذج الأدبي لأنه يرى في اكتمالها في إيجاد خطاب خيالي لا واقعي وفي اعتمادها سرديات خاصة ونفي ما ليس سردي»[47]، هذ النقد لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينفصل عن المشهد الثقافي والسياسي، لذلك فتسمية هذا النوع من الدراسة أو النقد لا تعني أصحاب مدرسة برمنجهام شيئا، وفي مقدمتهم إيغلتون فهو نموذج فقط، لذلك فتسميته بلاغة جديدة أم نظرية للخطاب أم الدراسات الثقافية أم النقد الثقافي أم النقد السياسي لا يهمّ «لكن الأهمّ هو مضمون التسمية، وهو المضمون الذي يعني التحول من النمط القديم للنظرية إلى هذا النموذج الجديد الأوسع اهتماما والأشدّ تأثيرا والأكثر نفعا»[48]، فالنصوص الأدبية ومن ضمنها الأعمال السردية، وخاصة الرواية مشحونة من حيث المرجعيات، ومكثفة من حيث الصراعات بين هويات مختلفة، تتصارع أحيانا وتتعايش أحيانا أخرى، لذلك تكون مهمة الناقد الثقافي، هي تفكيك الخطابات الأدبية والفنية والجمالية عامة، في إطار مجموعة من المعايير الثقافية والاجتماعية والسياسية والتاريخية والنفسية، والقراءة بهذا الشكل «تتضح بوعي الناقد بالثقافة ومضمراتها، وما يحدّد إمكانية تحققها هو تماس أو تلاقي البعد الجمالي مع البعد الثقافي داخل وعي القارئ، وبالتالي تحديد نقاط الاختلاف بين الأدبي والثقافي»[49]، لكن هذا لا يمنعنا من القول أنّ النقد الثقافي أقرب إلى النقد الإيديولوجي «حيث توضع مضمرات النسق الثقافي والمسلمات الإيديولوجية والمعتقدات موضع المساءلة والمراجعة

والنقد»[50]، ومنه فهذا النقد يلهث وراء القرائن المادية التي تثبت جناية النص إيديولوجيا، فكل النصوص غير بريئة بأي حال من الأحوال، لذلك ينبغي وضعها موضع محاكمة، ثم تفكيكها وتشريحها لإثبات هذه الجناية، وهذه النظرة أراد تيري إيجلتون في كتابه "النقد والإيديولوجيا" تجاوزها من خلال محاولة التمييز بين الأدب والإيديولوجيا وتحديد العلاقة بينهما، انطلاقا من مقولات ألتوسير «ذلك أنّ النصوص الأدبية لا تعكس الواقع التاريخي، فيما يرى إيجلتون، بل تمارس عملها على الإيديولوجيا لتنتج تأثرا بهذا الواقع»[51].وهذه الإيديولوجيا ترتبط بوعي المبدع الذي يعيد صياغتها جماليا عبر لغة متفردة، وهذا يفرض على الناقد حسب إيستهوب امتلاك عدّة منهجية فعّالة يمكنها اختراق بنية النص ومنه فإنّ «فهم إيستهوب لقراءة النص يقع بين التفكيك والتأويل، فهو يريد من المحلّل أن يراعي أبنية النص فكأنه يقوم بتفكيكها ليؤول ما قد تخفيه من موضوعات إلى ما قد يتواءم مع ما في نفسه»[52]، لذلك فالأفق المعرفي للقارئ هو الذي يحدد طبيعة القراءة المستهدفة، والنتائج المتوخاة منها، وأمام هذا التحول الذي عرفته الساحة النقدية على مستوى المفاهيم والتصورات والوعي ومع توسع مفهوم النقد، وخروجه من دائرة الأدبي نحو أرجاء واسعة ضمن حقل الثقافة صار مصطلح النص الأدبي مهدد بالزوال، والتراجع ضمن المنظومة النقدية والنظرية الأدبية المعاصرة، في ظل ظهور نص آخر بديل، وهو النص الثقافي باصطلاح مجموعة من أعلام النقد الثقافي، « الذي يتكوّن من جميع النصوص المكتوبة، والمرئية والمسموعة والمعقولة، مع النص السلوكي الذي يتجلى في سلوك البشر، من كل نوع وطبقة»[53]، وهذا ما شكّل نقدا جديدا، يواكب هذا التحول في أشكال النصوص والخطابات المختلفة، ليحاول قراءتها ضمن وعي مغاير، ووفق أفق منهجي جديد.

-خاتمة:

في ختام هذا المقال يمكننا الخروج بجملة من النتائج، التي تمثل زبدة هذا البحث، الذي تناولنا فيه مفهوم الدراسات الثقافية عند مدرسة بيرمنجهام، ودورها في التأصيل لهذا النمط من الدراسة، التي تشكلت في سياق التفاعل مع مختلف الفتوحات المعرفية الغربية المعاصرة خصوصا تيارات ما بعد الحداثة، والتحولات التي شهدها المشهد السياسي العالمي، وهذه الدراسات هي أصلا جاءت لتحفر في عمق الثقافات الإنسانية، خصوصا ثقافة الهوامش منها، تحاول تمشيط هذه الثقافات من أجل الكشف عن مختلف السبل التي تهيأ لها الهيمنة والاستعمار، عبر استراتيجية تضمن لها ممارسة حقها في معرفة الثقافات الإنسانية، لذلك يوظف أصحابها مختلفا لأسلحة المنهجية، من أجل تفكيك الثقافات الشرقية والضعيفة خصوصا، وعبر استراتيجيات دقيقة، وبشكل أعمق من حيث المحتوى، والمنهج

والنقد، انصبّ بحث مدرسة برمنجهام حول اكتشاف تجليات بنى الثقافة الشعبية، والرسمية بمختلف أشكالها، والتعددية الثقافية من حيث تمركزها حول مجموعة من الأفكار والتصورات التي تستند إلى مجموعة من الفلسفات، وإنتاج أشكال معرفية تتعلق بالبنى الاجتماعية، كما طرح أنصار هذه المدرسة مسألة الهويات الثقافية، والعلاقة الموجودة بين الأدب والمؤسسة، حيث حاولوا إثباتها من أجل فهم الآخر، والسيطرة عليه ثقافيا وسياسيا، لتتشكل لديهم صورة أوضح حول تلك الثقافات الإنسانية، وهذه الدراسة اتخذت من الأنثروبولوجيا الثقافية كاستراتيجية في قراءة الخطابات الثقافية وتقويضها، فكشفت عن الهوية السياسية لمختلف هذه الخطابات، ومراميها الخفية والمضمرة، وأثبتت التهم الموجهة إليها، مستفيدة من بعض الخطابات الفلسفية التي شيّدت صرحها العلمي والمعرفي.

الهوامش والإحالات:

[1]-أيزابر جرأرثر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط1، 2003، ص31.

[2]-إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤية للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 2012، ص 46.

[3]-ينظر: فؤاد سعيد، الدراسات الثقافية والتحليل الثقافي، على الرابط التالي:*www.academia.edu/50545955*.

[4]-هيثم أحمد العزام، النقد الثقافي، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013، ص 89.

[5]-محمد سالم سعد الله: سجن التفكيك الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2013، ص 23.

[6]-رامان سالدن: النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر، 1998،ص71-72.

[7]-ينظر محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 331.

[8]-أيزابرجرأرثر: النقد الثقافي تمهيد أولي للمفاهيم الرئيسية، ص 83.

[9]عز الدين إسماعيل: في الإبداع والنقد والأدب والشعر، آفاق معرفية، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع129، 1424ه، ص 114-115.

[10]-عمر مهيبل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2005، 215.

[11]-إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، ص 50-51.

[12]-محمد سالم سعد الله: سجن التفكيك الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، ص 186.

[13]-عمر مهيبل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 297.

[14]-أيزابرجرأرثر:النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ص 84.

[15]-المرجع نفسه: ص 192.

[16]-عز الدين إسماعيل: في الإبداع والنقد والأدب والشعر، ص 111.

[17]-تيري إيجلتون: فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2012، ص 17.

[18]المرجع نفسه: ص 14.

[19]-برهان غليون: إغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 2006، ص19.

[20]-عبد الله إبراهيم: الغذامي النقد الثقافي مطارحات في النظرية والمنهج والتطبيق(الغذامي الناقد قراءة في مشروع الغذامي النقدي)، كتاب الرياض، ع97-98، 2001، ص 319.

[21]-هيثم أحمد العزام: النقد الثقافي، ص 55.

[22]-إبراهيم فتحي: النقد الثقافي نظرة خاصة، مجلة فصول، ع63، شتاء-ربيع، 2004، ص 113.

[23]-رامان سالدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ص 71.

[24]-عز الدين إسماعيل: في الإبداع والنقد والادب والشعر، ص 129.

[25]-محمد سالم سعد الله: سجن التفكيك الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، 20.

[26]إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الإستعمار، ص 46.

[27]-المرجع نفسه: ن.ص.

[28]-عبد القادر الرباعي: جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2015، ص 17.

[29]-عز الدين إسماعيل: في الإبداع والنقد والأدب والشعر، ص 114-115.

[30]-عبد القادر الرباعي: جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، ص20.

[31]-المرجع نفسه: ص 19-20.

[32]-المرجع نفسه: ص 19.

[33]-المرجع نفسه: ن.ص.

[34]-المرجع نفسه: ن.ص.

[35]-عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه دراسة في سلطة النص، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 248.

[36]-عمر أزراج: النقد الثقافي، صحيفة العرب الإلكترونية، ع14، 2015/08/21، على الرابط التالي: *www.alarab.cu.ck*.

[37]-الموقع نفسه.

[38]-هيثم أحمد عزام: النقد الثقافي، ص 82.

[39]-محمد جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 12.

[40]-عبد القادر الرباعي: جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، ص 17.

[41]-محمد جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي، ص 12.

[42]-عبد القادر الرباعي: جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، ص 17.

[43]-محمد جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي، ص 14.

[44]-عبد الفتاح أحمد يوسف: قراءة النص وسؤال الثقافة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2009، ص 10.

[45]-المرجع نفسه: ن،ص.

[46]-جميل حمداوي: النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، موقع ديوان العرب، على الرابط التالي: *www.diwanalarab.com/spip.php.article*31174، 2012/01/07.

[47]-عبد القادر الرباعي: جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، ص 57.

[48]-المرجع نفسه: ص 56.

[49]-عبد الفتاح أحمد يوسف: قراءة النص وسؤال الثقافة، ص 04.

[50]-المرجع نفسه: ص 13.

[51]-رامان سالدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ص 72.

[52]-عبد القادر الرباعي: جماليات الخطاب في النقد الثقافي رؤية جدلية جديدة، ص 59.

[53]-هيثم أحمد عزام: النقد الثقافي، ص 98.